تواريخ مصرية أغفال وتعريف بمؤلفيها

١ ـ شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب

فى المتحفة البريطانية بلندن نسخة من تأريخ موسوم بشفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب رقمها « ٧٣١١ » فى الفهرست العتيق ، ومخرمة مقدار ورقة واحدة كان اسم مؤلف التأريخ مكتوبا فيها فذهب معها ، وقد صورت الجامعة المصرية نسخة من هذا الكتاب ، لتحفظ فى خزائنها ، ولبعض أدباء مصر نقل منها فى ترجمة شرف الدين ابن عنين الشاعر ، قال هذا الدكتور المؤرخ فى أول استشهاده بهذا الكتاب : « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ... وهو مخطوط مجهول المؤلف ، منه صور شمسية فى مكتبة جامعة فؤاد الأول »[١] .

ونسخة الأصل التى أشرنا اليها مكتوب عليها بخط أحدث من خطها الأصلى « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب » مرتين ، وعدة ورقها « ١٣١ » ورقة ، ولعلها نسخة المؤلف عينها بالنظر الى تأريخ الخط ، والمقدمة تدل على أن المؤلف أهدى كتابه الى أحد الملوك ، وابتدأ الكتابة بمدحه ، والثناء الحسن عليه وعلى أهله ، والباقى من ذلك كما جاء فى أول الورقة الثانية :

« سلفه الطاهر وأبنائه ، ويجمع له منهم الأول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والبادى والحاضر ، وذلك جهد المقل ، ومن بذل جهده فقد أوجب حمده ، وجاء فى الصحيح : صدقة درهم سبقت مئة ألف درهم . وما ذلك الا لهذا المعنى ، فجمعت لحضرته العلية المقام ، ورتبته المولية الانعام على الدوام ، كتابا يزداد به ذكره على مرور الأيام جدة ، ويذكر بمحاسن الأهل عند الوحدة ، (كما قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لهرم بن سنان[٢] : ما أعطى أبوك زهير على قصيدته اللامية ؟

---

(١) جمال الدين الشيال فى مجلة الثقافة (ج ٢٥٤/ص ١٩ ، سنة ١٩٤٣) .

(٢) هذا وهم ، والصحيح أنه قال لبعض ولد هرم بن سنان ، وفى الأغانى (٣٠٤/١٠) من طبعة دار الكتب : ان عمر قال لبعض ولد هرم : أنشدنى بعض مدح زهير أباك . فأنشده ، فقال عمر : ان كان ليحسن فيكم القول . قال : ونحن والله ان كنا لنحسن له العطاء . فقال : ذهب ما أعطيتموه ، وبقى ما أعطاكم . وهذا أشبه بأسلوب ذلك العصر مما نقله هذا المؤرخ .

قل : نيلا وأثاثا وأشياء أفناها الدهر . قال عمر : لكن ما أعطاكموه لا يفنيه الدهر ، وفى رواية : أعطاه كذا وكذا وأشياء أنسيتها . فقال : ما أعطاكموه لا ينسى) فى مآثر بيته الذى رفع على أحسن عماد ، ومناقب أهله الأجواد الأمجاد ، سلاطين الاسلام ، وأعيان الأعلام ، وزين الزمان ، وفخر الأوان ، الذين هم - كما قال بعضهم :

عاشوا كراما وماتوا كراما ... وعاش فى فضلهم الكرام
خلت الأسرة والمنابر منهم ... فعليهم حتى الممات سلام

وختمته بذكر مناقبه التى هى واسطة[1] هذا النظام ، ومحاسنه الشريفة التى هى مسك الختام . وقد أردفه الملوك ، بذكر السادة الملوك ، أولاد المقام الأشرف الذين هم عين الأعيان ، ونخبة الزمان ، والنجوم الزواهر ، والبحور الزواخر

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التى يسرى بها السارى

اللهم ! شد عضده وساعده ، وكن فى الحوادث معاضده ومساعده . وسميته « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب » ، على أننى لا ألتزم استيعاب الأخبار ، ولا ذكر جميع الآثار ، لكن تبهنا بما ذكر على ما لم يذكر ؛ فان عجائب البحر لا تحصى ولا تحصر ، فان وقع من خاطره الكريم فى حيز القبول ، فهو غاية المقصود ومنتهى السول ، والا

فغايتى أن ألوم حظى ... وحظى الحائط القصير

والمسؤول من احسان الواقف عليه ، والواصل اليه ، أن يغفر الزلل ويسمح ، الخطأ ويصفح ؛ فانى معترف بالتقصير ، معتذر الى حضرة من اليه هذا الكتاب يصير ، متمثل بقول العالم الكبير :

وان تجد عيبا فسد الخللا ... جل من لا عيب فيه وعلا

وبالله أعتضد فيما أعتمد ، وأعتصم عما يصم ، وهو حسبى ونعم الوكيل ، ومن هنا نشرع فيما نحن بصدده ، والله الموفق والمعين والمسهل للاتمام » .

وقد صرح باسم والد الملك المذكور فى الورقة « ١٢٦ » ، قال : « ومنهم الملك العادل ، السلطان الأعظم ، الملك الاكرم ، العالم العامل ، المجاهد المرابط ، السيد الأجل ، مجمع الفضائل ، معدن الفواضل ، محط رحال الأفاضل ، الملك السعيد الشهيد العادل ، أبو المفاخر سليمان فخر الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ...

(١) بين واسطة وهذا كلمة مضروب عليها بالقلم .

ابن الملك العادل شهاب الدين غازى ابن الملك العادل مجيرالدين محمد بن الملك الكامل سيف الدين أبى بكر بن شادى ، وقيل : محمد بن الموحد تقى الدين عبدالله ابن المعظم غياث الدين ، ١٢٧[١] . استدللنا على ذلك بقوله فى الورقة « ٩ » : « وأحسن من ذلك كله قول المقام العادلى ـ تغمده الله برحمته ـ والد الملك الأشرف ، من جمع باسمه هذا الكتاب ـ خلد الله ملكه » .

وقد توفى الملك العادل سنة ٨٢٧ هـ ، قال ابن العماد الحنبلى فى وفيات هذه السنة : « وفيها الملك العادل فخر الدين أبو المفاخر سليمان بن الملك الكامل غازى ابن محمد أبى بكر بن شادى صاحب حصن كيفا وابن صاحبه ، تسلطن فى الحصن بعد موت أبيه ، وحسنت أيامه . وكان مشكور السيرة ، محببا للرعية ، مع الفضيلة التامة ، والذكاء ، والمشاركة الحسنة . وله نثر وديوان شعر لطيف ... واستمر فى مملكة الحصن الى أن توفى ، وأقيم بعده ولده الملك الأشرف أحمد المقتول بيد أعوان قرا ايلك فى سنة ست وثلاثين وثمانمائة »[٢] .

وذكره قبله الحافظ شهاب الدين ابن حجر ، قال فى وفيات سنة ٨٢٧ هـ : « سليمان ابن الملك العادل ... ابن أيوب ، أقعد ملوك أهل الأرض فى مملكة حصن كيفا ... واستقر بعده فى مملكة الحصن ولده الملك الأشرف أحمد بن سليمان ، ثم قتل أحمد فى سنة ست وثلاثين واستقر فى مملكته ولده عزالدين الفضل ... »[٣] .

وجاء فى وفيات سنة ٨٣٦ هـ من الشذرات : « وفيها الملك الأشرف أحمد بن العادل سليمان الأيوبى صاحب حصن كيفا ، قال ابن حجر : كان دينا فاضلا ، له شعر حسن ، وقفت على ديوانه وهو يشتمل على نوائح فى أبيه وغزل وزهديات وغير ذلك . وكان جوادا ، محبا فى العلماء (كذا) . خرج فى عسكره للاقاة السلطان[٤] على حصار آمد ، فاتفق أنه نزل لصلاة الصبح ، فوقع به فريق من التركمان ، فأوقعوا به على غرة فقتل ، ووصل بقية أصحابه وولده خليل ، فقرر ولده فى مملكة أبيه ولقب بالصالح »[٥] .

(١) هنا نقصان .

(٢) شذرات الذهب (١٧٨/٧)

(٣) أصول التاريخ والأدب (٩٦/١٢) نقلا من الجزء الثانى من « أنباء الغمر بانباء العمر » نسخة دار الكتب الوطنية بباريس « ١٦٠٢ » و « ١٣٩ » .

(٤) هو أبو النصر برسباى بن عبدالله الدقماقى الملقب بالملك الأشرف المتوفى سنة ٨٤١ هـ .

(٥) الشذرات (٢١٦/٧) .

فهذا الكتاب أهداه مؤلفه الى الملك الأشرف أحمد بن الملك العادل غازى الأيوبى المذكور ، ولم نجد فى الكتاب تأريخا يتجاوز عهد هـذا الملك فى النزول ، وآخر سنة ذكرها فى الكتاب هى سنة ٨٢٤ هـ ، وقال فى الورقة « ١٠٦ » يذكر تشابه حادثتين : « قال جامعه الفقير : وكذا جرى فى مصر سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، استهلت والسلطنة للمؤيد شيخ ، ثم توفى رابع ذى الحجة ، وولى ابنه الصالح » . وجاء فى آخر النسخة فى « و ١٣١ » : « هذا كتاب ملكه أفقر العباد ملا مصطفى بن ياسين أفندى نائب بغداد » .

مؤلف الكتاب وأسلوبه

ان نقصان الكتاب ورقة واحدة من أوله ، منع مفهرس كتب المتحفة البريطانية من معرفة المؤلف ، ولولا بقاء تصريح المؤلف باسم كتابه فى المقدمة لضاع اسم الكتاب أيضا ، واعتراه الابهام من جهة التأليف والمؤلف ، الا أن الذى يسر لنا معرفة الكتاب هو ثبوت اسمه كما أشرنا اليه ، واشارة شمس الدين السخاوى اليه فى ذيل تأريخ قضاة مصر الذى لابن حجر العسقلانى الموسوم ـ أعنى الذيل ـ ببغية العلماء والرواة فى الذيل على كتاب شيخى فى القضاة ، فقد ذكر فى ترجمة « عزالدين أبى البركات أحمد بن ابراهيم بن نصرالله الكنانى العسقلانى الأصل القاهرى الصالحى القاضى الحنبلى القادرى » أن من تآليفه « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب »[١] .

ومختصر ترجمة القاضى عزالدين الكنانى أنه ولد فى سادس عشر ذى القعدة من سنة ثمانمائة بالمدرسة الصالحية بالقاهرة ، ونشأ بها فى كفالة أمه لموت والده فى مدة رضاعه ، وحفظ القرآن وجود قراءته على أحد الشيوخ ، وحفظ مختصر المزنى[٢] حفظا تاما ، وتفقه ودرس العربية ، وقرأ القرآن بالقراءات والتفسير والمعانى والبيان ، فضلا عن سماعه الحديث وتعلمه الفرائض والأصلين والحكمة والمنطق . ومن أعلام الشيوخ الذين درس عليهم شهاب الدين ابن حجر ، وعز الدين عبدالسلام البغدادى . ولبس خرقة التصوف مع تلقين الذكر ، وناب عن قاضى الحنابلة وهو ابن سبع عشرة سنة ، واستنابه أحد شيوخه فى التدريس بالمدرسة الجمالية والحسينية ومدرسة أم السلطان ، وباشر تداريس أخرى والخطابة فى جامع الملك بالحسينية والتحديث

(١) أصول التأريخ والأدب (٢١٥/١٧) نقلا من الكتاب المذكور ، « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٢١٥٠ ورقة ٧ » .

(٢) مختصر المزنى فى فروع المذهب الشافعى للامام اسماعيل بن يحيى المزنى المتوفى سنة ٢٤٦ هـ .

بأحد الجوامع . وكان لا يتردد الى أحد من بنى الدنيا الا لافادة علم ، ولا زاحم أحدا على سعى فى وظيفة أو راتب . وسافر الى عدة بلاد : زار بيت القدس والخليل ، ودخل الرملة والشام ، وحج غير مرة ، وأكثر من الجمع والتصنيف والانتقاء والتأليف حتى لقد صنف فى أكثر الفنون نثرا أو نظما ، وبعد صيته ، وصارت داره مجمعا لكثير من الفضلاء ، ثم ولى قضاء الحنابلة مع التداريس المضافة الى القضاء . وكان متواضعا ، مستأنسا بأصحابه وسائر من يتردد اليه ، عفيفا شهما كثير المحاسن ، أنشأ مدرسة ومسجدا وسبيلا ، سقاية ، وصهريجا وغير ذلك من القربات . وكانت داره أيضا مألفا لطائفة من الأرامل ونحوهن . قال السخاوى : « ولا أعلم الآن من يوازيه فى ذلك » يعنى احاطته بالعلوم . ثم قال : « وما علمت من أستأنس به بعده »[١] . وذكر أن له فى التأريخ « طبقات الحنابلة الكبرى »[٢] فى أربعة عشر مجلدا ، والوسطى فى ثلاثة ، والصغرى فى مجلد . وهى على أسلوبين : على الحروف ، وعلى السنين . وذكر له « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب » وقال : « أهداه لصاحب الحصن » يعنى الملك الأشرف بن الملك العادل كما أسلفناه من الكلام ، و « النشر فى التأريخ » فى واحد وأربعين جزءا ، جرد فيه كثيرا من التراجم التى أودعها السخاوى تأريخه الحافل ـ هكذا قال ـ وعمل كل مئة من التأريخ فى تصنيفين : على الحروف والسنين . أما (المئة) الثامنة فاختصر فيها « الدرر الكامنة » لابن حجر مع زيادات يسيرة جدا ، وأما التاسعة فاستمد فيها من انباء الغمر لابن حجر أيضا ومن معجمه وتعاليقه ، وما عداهما فقد استمد فيه من تأريخ الاسلام للذهبى ولم يخرج عنه الا فى النادر ، ولم يعن بالحوادث ولا بالوفيات على طريقة المؤرخين مع اشتهاره بالتأريخ عند كل أحد ، قال السخاوى : « بل أكثر ما يوجد بخطه عن المتأخرين فمما طالعه منى . وله فى فن الأدب كتاب فى المنامات المنظومة ، مرتب على حروف المعجم فى مجلد سماه تنبيه الأخيار فيما قيل فى المنام من الأشعار »[٣] . وقال نور الدين على بن داود الحنبلى الجوهرى الحنفى : « ولازم شيخنا شيخ الاسلام ابن حجر ـ رحمه الله ـ فى بداية أمره كثيرا ، وانتفع به فى أشياء منها كتابه الذى صنفه فى الأشعار التى سمعت فى المنامات . وقد

(١) انضر اللامع (١/٢٠٥) وما يليها .

(٢) لم يذكرها حاجى خليفة فى كشف الظنون .

(٣) أصول التأريخ والأدب (١٧/٢١٥) نقلا من بغية العلماء والرواة فى الذيل على كتاب شيخى فى القضاء المذكور سابقا .

شهد له شيخنا شيخ الاسلام ابن حجر بعد موت المحب [١] أنه عالم الحنابلة ، وعظمه فى عدة مواضع من مصنفاته منهم (كذا) « رفع الاصر عن قضاة مصر » . وكذا عظمه الشيخ شمس الدين السخاوى الحافظ المحدث فى الذيل الذى صنعه على رفع الاصر بترجمة عظيمة تبلغ كراسة فى كامل الشامى ... فمن أراد الوقوف عليها يراها »[٢] وجاء فى الشذرات أنه « له من التصانيف مختصر المحرر فى الفقه وتصحيحه ونظمه ، ومنظومات متعددة فى علوم عديدة فقها ونحوا وأصولا وتصريفا وبيانا وبديعا وحسابا وغير ذلك . وله من غير النظم « توضيح الألفية » وشروحها وشروح غالب هذه المنظومات وتوضيحاتها الى غير ذلك من التواريخ والمجاميع ، واختصر تصحيح الخلاف المطلق فى المقنع للشيخ شمس الدين بن عبدالقادر النابلسي ، وكان ينظم الشعر الحسن »[٣] .

وقال نور الدين الجوهرى : « وكان رحمه الله يودنى ويميل الى ، ووقف على جزء من تأريخى الكبير فى فضائل أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - وكتب لى عليه كتابة جيدة . والتأريخ الذى وقف عليه « نزهة النفوس والابدان فى تواريخ الأزمان » ابتدأت فيه من آدم - عليه السلام - الى الآن [٤] » . وقال السخاوى : « ولما مات المحب [٥] البغدادى تكلم غالب الأعيان معه فى الاستقرار فى وظيفته فى القضاء ، فامتنع أشد امتناع »[٦] .

وذكر هو فى شفاء القلوب أن له أيضا « تسلية المصاب بفقد الأحباب » قال فى تشابه الحوادث : « ومثله ما جرى لى ، وهو أنى صنفت كتابا سميته تسلية المصاب بفقد الأحباب ، فما تم حتى جاء الطاعون فرق لنا شملا » . وذكر مقطعات من شعره قال فى الورقة « ١٢٩ » يمدح الأشرف : « وجامعه الفقير يقول ، ويسأل القبول :

لـه قلم يرجى نداه ويتقى ... فيوصل أرزاقا ويقطع أوصالا
ويفعل فعل البحر فى حالة الرضا ... ويفعل فعل السيف ان غيظ أوصالا

---

(١) أراد محب الدين أبا الفضل أحمد بن نصرالله البغدادى قاضى قضاة الحنابلة المشهور (٧٦٥ - ٨٤٤ هـ) له ترجمة فى رفع الاصر عن قضاة مصر وأنباء الغمر بأنباء العمر والضوء اللامع والشذرات وغيرها كالنجوم الزاهرة .

(٢) أصول التأريخ والأدب (٣/١٢٣) نقلا من انباء الهصر بأنباء العمر لنور الدين على بن داود الخطيب الجوهرى الحنفى ، نسخة باريس « ١٧٩١ ورقة ١٣٤ » .

(٣) الشذرات (٧/٢٢١ - ٢) .

(٤) المرجع المذكور فى الرقم ٣ .

(٥) المرجع المذكور فى الرقم ١ .

(٦) انظر الحاشية رقم (١) .

ومن أشعاره التي ذكرها :

يلقـــاك منفـــردا من فـــرط هيبتـــه كأنـــه واحـــد فى عســـكر لجب

ومن نظمه أيضا قوله :

مـا بـــال قلبـــك لا يـــرق فيعطف يـــومـــا على وأنت غصن أهيـف ؟

لما سننت الهجـر فى سنن الهـوى حرمت نـومى جهـد مـا أتـكلف

كيف السلو ورمح قـــدك عـــادل يبـدى صـــوارم ناظـر لا ينصف ؟

أم كيـف أتركه وفـوق أســـهما من قوس حاجبـه الذى هو مشـرف

مالى وحقك فى هواه منصفا (كذا) الا الذى يدعى المليك الأشرف[1] (كذا)

الى آخر الأبيات الباردة النفس الملحون فيها ، مما لا طائل فيه .

ذكر المؤرخون المقدم ذكرهم أنه توفى ليلة السبت حادى عشر جمادى الأولى من سنة « ٨٧٦ » هـ ، وصلى عليه السلطان قايتباى والقضاة وأركان الدولة ، وكانت جنازته حافلة ، ودفن فى الصحراء من القاهرة .

وكتابه « شفاء القلوب » من التواريخ المختصرة ، اعتمد فيه على الوفيات والمرآة وغيرهما ، وقد جعله على الطبقات أى البطون ، قال تحت « قاعدة الكتاب » : « أذكر أولا أصل البيت الأيوبى ، وهم منتسبون الى أيوب بن شادى بن مروان ـ كما نذكره فى محله ـ ثم نتبعه بذكر التراجم على الطبقات . فالطبقة الأولى أولاد شادى ، والثانية أولاد أولاده ، والثالثة أولاد أولاد أولاده ، وكذا الى آخر الكتاب ؛ وأقدم من الأخوة وأسبقهم (كذا) موتا ، ثم أتبعهم بمن لم أعلم وفاته ، ثم أتبعهم بأخواتهم النساء كذلك ، ثم أذكر أولادهم فى الطبقة التى تلى طبقتهم على حسب ترتيب أصولهم ، وكذا الى آخر الطبقات » .

قال فى الورقة « ٣ » : « ويقال : ان مروان من أولاد الخلفاء الأموية ، وادعى ذلك اسماعيل بن طغتكين بن أيوب ، وأنكره عمه العادل أبو بكر . وذكر ابن القادسى[2] أن شادى كان مملوكا لبهروز الخادم ، وهو غلط ، ما كان مملوكا قط ، وانما هو من

(١) شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب .

(٢) هو الشيخ الأديب المؤرخ الكبير أبو عبدالله محمد بن أبى العباس الفادسى ـ قادسية سامراء ـ الكتبى ، سمع الحديث واعتنى بالتواريخ وغيرها ، وألف الذيل على المنتظم لابن الجوزى وتأريخ الوزراء . وله تآليف أخرى . وهو مرجع جماعة من المؤرخين كسبط ابن الجوزى وأبى شامة وغيرهما ، توفى فى جمادى الآخرة سنة « ٦٣٢ » ببغداد ودفن بمقبرة باب حرب ـ على ما ذكره المنذرى فى « التكملة لوفيات النقلة » ـ وقد ذكره ابن خلكان فى ترجمة ابن هبيرة وياقوت فى المشترك .

الأكراد الروادية ، وهي بطن من الهذبانية ، من دوين في آخر أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج » .

والكتاب مختصر ، جمع فيه مؤلفه كثيرا مما تفرق في الكتب . وكان تأليفه في أيام شبيته ، وترك فيه بياضا لما لم يصل اليه علمه ، أو لما يجوز أن يضاف اليه .

٢ ـ تأريخ الأمير يشبك الظاهري

سماه جرجي زيدان « رحلة الأمير يشبك الظاهري في آسيا الصغرى وما وراءها من سنة ٨٧٥ ـ ٨٧٧ » . قال : « ليس عليها اسم مؤلفها ، ولكن يؤخذ من مطالعتها أن المؤلف كان قاضيا للعسكر ، وانتدبه الأمير يشبك في مهمات سياسية ، وأنه كان رفيقا للأمير في رحلته : تبدأ الرحلة من القاهرة الى العريش فالحرمين فالشام فحلب فقنسرين الى آسيا الصغرى فتبريز وغيرها . ثم عاد الى مصر ، وقد دون ما لاقاه هذا الأمير من الحفاوة أو المقاومة والمحاربة هو وحاشيته الكبيرة ، ويتخلل ذلك فوائد تأريخية وسياسية وذكر بعض الأدوات الحربية كالمكحلة [١] لرمي الحجارة وكيفية استخدامها ، ومخابرات سياسية مع سلاطين آل عثمان . منها نسخة في المكتبة الخديوية من جملة كتب زكي باشا في ١٣٩ ص » اهـ [٢] .

وسماها شمس الدين السخاوي ـ كما يأتي ـ « سفرة سوار » ، لأن يشبك حاصر الأمير سوارا .

وجاء في الجزء الخامس من فهرست دار الكتب المصرية (ص ٧٦) وملحقه (ص ٤٧) : أن الكتاب هو « تأريخ الأمير يشبك الظاهري ورحلته من القاهرة الى آسيا الصغرى . وهو المقر السيفي الأمير يشبك بن مهدي الظاهري ثم الأشرف أحد ملوك الأتراك بالديار المصرية [٣] وفي لوحة (٧٧) ما يفيد أن مؤلفه أحد تلامذة الحافظ ابن حجر العسقلاني .

أوله : الحمد لله الذي نصر عباده المؤمنين الخ . وهو يتضمن تأريخ الأمير ورحلته التي تبتدئ من القاهرة في يوم الاثنين العاشر من شهر شوال سنة ٨٧٥ هـ الى آسيا الصغرى وغيرها ، وترجمته وسيرته وأعماله ، نسخة في مجلد مأخوذة بالتصوير الشمسي

(١) يعني « المدفع » في طوره الأول .

(٢) تأريخ آداب اللغة العربية (٣/٢٢١) طبعة سنة ١٩١٣ م .

(٣) كذا ورد في تعريف المفهرس ، وليس بصواب ، فانه كان أميرا كبيرا ولم يكن ملكا ولو صغيرا . وسيأتي النقل من الكتاب بأنه كان أميرا في قول المؤلف : « ولم يخرج أحد ممن تقدم من الأمراء مثله » .

عن النسخة الأصلية في شهر رمضان سنة ١٣٢٧ عني بنسخها أحمد زكي باشا سكرتير مجلس النظار سابقا ، والمحفوظة بالمكتبة السلطانية بالقسطنطينية ، وبها خرم من لوحة (١١٦) . ونسخة أخرى مأخوذة بالتصوير الشمسي بمطبعة دار الكتب المصرية عن النسخة الفتوغرافية المحفوظة بالدار برقم (٢٥٩٢ تأريخ) ، في « ١٣٩ » لوحة ، ومسطرتها ١٣ سطرا في حجم الربع » اهـ .

قلت : وقد رأيت نسخة منها محفوظة بدار الكتب الوطنية بباريس رقمها « ٦٠٢٦ عربيات » ، وفي الورقة الأولى منها : « هذا كتاب في تأريخ الأمير يشبك الظاهري » ، ثم يرى القارئ : « لقد نصركم الله ... بسم الله الرحمن الرحيم ... أما بعد ، فلما كان نهار الاثنين العاشر من شوال توجه المقر الأشرف الكريم العالي الأميري الكبيري المشيري النظامي المخدومي السيفي يشبك الظاهري ثم الأشرفي أعز الله أنصاره وملكه أمصاره ـ من القاهرة المحروسة في أبهة عظيمة لم يخرج أحد ممن تقدم من الأمراء مثله ، وسنذكر وصف الهيئة التي خرج فيها ، ونزل بالريدانية ، وفوض اليه أمر المملكة الشامية » الورقة ٢ » من العريش الى الفرات ... وأقام بها ، وأرباب الدولة والأمراء يترددون الى خدمته ، ونزل اليه السلطان الملك الأشرف قايتباي ـ خلد الله ملكه مرتين »[1] . وهذه النسخة في « ٧٤ » ورقة .

أما الأمير يشبك الذي نسبت الرحلة اليه فقد ذكر ابن أياس أنه كان « أميرا عظيما مهيبا عسوفا ، وكان له بمصر حرمة وافرة . وقد اجتمع فيه من الوظائف ما لا اجتمع (كذا) في غيره من الأمراء . وكان أشقر اللون ، مستدير الوجه ، أشهل العينين ، طويل القامة ، غليظ الجسد ، عارفا بأحوال المملكة ، صلبا في محاكماته ، لا يراد في الكلام . وهو الذي أنشأ القبة في المطرية ، والقبة التي في الحسينية . وله غير ذلك آثار كثيرة على جهات البر والصدقة . وكان له محاسن ومساوىء . قتل في سنة « ٨٨٦ » هـ في وقعة بينه وبين الآق قوينلية على عهد السلطان يعقوب بن حسن الطويل « أوزن حسن » ، وذلك أنه لما قرب من الرها بالجزيرة الفراتية ورأى كثرة العساكر معه طمع في بلاد الدولة الآق قوينلية ، وكانت تلك البلاد للأمير بيان در من أمراء آق قوينلو ، فقوي عزم الأمير يشبك على قتاله ، واستعد الأمير بيان در للقائه ، وجرت بينهم وقعة عظيمة هائلة قرب الرها ، دحر فيها الأمير يشبك وجيشه ، وأسر هو مع جماعة من الأمراء ، ثم قتل صبرا ، وطيف برأسه على رمح في بلاد الدولة الآق قوينلية ،

(١) أصول التأريخ والأدب (٣/٧٧) نقلا من نسخة باريس .

ثم اعتذر السلطان يعقوب بن حسن الطويل الى سلطان مصر ، وقامت والدته فى الصلح مقاما محمودا ، وخمدت الفتنة [١] .

مؤلف الكتاب ونبذ منه

كل ما استطاع واصفو الكتاب وخزانه أن يعلموه من خبره أنه كان تلميذا لابن حجر العسقلانى ، وأنه كان قاضيا للعسكر ، مستدلين بما ورد فى الرحلة من تصريحه بذلك ، ولكن المؤلف بقى مجهولا أمره ، وبقى الكتاب غفلا من اسمه . وقد حرصنا على أن نبحث عن حقيقته ، حتى اهتدينا الى معرفته ، بالمقابلات التاريخية والتصور التأريخى العام ، والاستدلال الضمنى ، وهو : « القاضى شمس الدين محمد بن محمود المعروف بابن آجا ، فقد ذكر فى رحلته أنه حمل رسالة الى الأمير سوار الخارج على السلطان قايتباى ببلاد سيس ، قال « و ٢٥ » : « وفى عشرين من تأريخه وصل قاصد من عند سوار المخذول ، فجهزونى اليه » ، ثم قال : « فما لبثت غير ساعة رملية حتى طلبنى ، فلما قربت منه قام ولاقانى خطوات وأجلسنى بجانبه ... والظاهر أن قاصده أخبره بذلك ؛ لأن المقر الأشرف أميردوادار ـ أيده الله بملائكته ـ قال للقاصد المذكور : قد جهزت اليكم قاضى العسكر ، وهو والدنا كلنا ، واعتمادنا على كلامه ، ورضاه رضانا ، ومهما اتفق معكم كان ذلك ، وما ثم [٢] خلاف . فتناولت داوادار الكتاب الذى صحبنى ... » . وقد ذكر هذه الحادثة ابن اياس فى حوادث سنة « ٨٧٦ هـ » قال : « فيه أرسل السلطان الى سوار تجريدة ، وهى التجريدة الثالثة ، وكان [٢] باش العسكرية المقر السيفى يشبك بن المهدى أمير آخور وجماعة من الأمراء المقدمين ... فخرج الأمير يشبك فى طلب عظيم ... وتوجهوا جميعا الى « زمنطو » التى هى محط رحال سوار ، فأقاموا هناك يحاصرو « كذا » قلعتها مدة وسوار بها . فلما أراد الله ـ تعالى ـ خذلان سوار ، غلت يده ، وزال سعده . فأرسل يسأل فى الصلح ، ويطلب الأمان من الأمير يشبك ، فأجابه الى ذلك . ثم ان سوار أرسل يطلب الأمير تمراز قريب المقام الشريف ، فأشار الأمير يشبك على الأمير تمراز بالتوجه الى سوار ، وأخذ صحبته القاضى شمس الدين آجا قاضى العسكر ، فطلعوا الى سوار الى قلعة « زمنطو » ،

(٢) المرجع المذكور (ص ٤٣ ـ ٧) ومن شاء فليرجع الى النسخة المطبوعة من « بدائع الزهور » والضوء اللامع (٢٧٢/١) .

(١) قصد « وما بقى خلاف » ، وهو من التعابير العامية ، ولا يزال العامة عندنا بالعراق بل كثير من الخاصة يستعملون هذه العبارة .

(٢) يعنى مقدم العسكر ، وهى كلمة « باش » التركية المعروفة .

واجتمعوا بسوار ، وأكل معهم » . وآل الأمر الى أنهم غدروا به واعتقلوه ، ثم نقلوه الى القاهرة ، وصلبوه مسمرا على باب زويلة حتى مات في العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٨٧٧ هـ (١) .

ومما قدمنا ، علم أن مؤلف « رحلة يشبك » وتأريخه هو القاضي المذكور ، أعني شمس الدين ابن آجا . قال السخاوي في ترجمة الأمير يشبك المذكور في المقال : « كان هو باش العسكر المتوجه لدفع سوار ، واحتال حتى أحضره في طائفة ، وكان أمرا مهولا ، أفرده امامه الشمس ابن آجا بالجمع ، فبالغ ، وأضيف اليه الوزر فقطع ووصل ورفع وخفض » (٢) .

وخلاصة ترجمته أنه : « محمد بن محمود بن خليل الحلبي الحنفي التركي الأصل ، وكان واندد يلقب بآجا ، فعرف بابن آجا . ولد في سنة عشرين وثمانمائة بحلب ، ونشأ بها ، وحفظ القرآن وكتاب القدوري في فروع المذهب الحنفي ومنار الأنوار في أصول الفقه للامام أبي البركات عبدالله بن أحمد النسفي المتوفى سنة « ٧١٠ » هـ ، ودرس في النحو « الضوء » أعني ضوء الدرر في شرح ألفية ابن معطٍ ، لزين الدين عمر بن مظفر ابن الوردي المتوفى سنة « ٧٤٩ » هـ ، واشتغل بالفقه ، وسمع الحديث ، ولقي العلامة ابن حجر في سنة ٧٣٦ هـ فأخذ عنه ، ثم لقيه بالقاهرة حين دخلها ابن آجا صحبة خاله شهاب الدين أحمد بن أبي بكر صالح المرعشي ، ودرس على غيره . ثم كثر تردده الى القاهرة ، ولازم خطيب مكة المعروف بأبي الفضل ، واختص بالأمير أزبك الظاهري ، وأم به وقتا ، ثم ارتقى الى صحبة الداوادار الكبير يشبك (٣) ابن مهدي ، ونفق عليه ، وبعث رسولا من السلطان ومنه الى عدة ممالك كبلاد العجم وبلاد الروم ، وحج مرتين ، وزار بيت المقدس والخليل مرارا ، ثم استقر في قضاء العسكر ، وحدث بالشفا في تعريف حقوق المصطفى لأبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي القاضي المتوفى سنة « ٥٤٤ » هـ ، وترجم فتوح الشام للواقدي بالتركي نظما في اثني عشر ألف بيت ، (٤) قاله السخاوي ، وذكر أيضا أنه « عمل سفرة سوار » (٥)

(١) أصول التأريخ والأدب (٣/٤٠) نقلا من تأريخ ابن اياس ، نسخة دار الكتب الباريسية المذكورة .

(٢) الضوء اللامع (١٠/٢٤) .

(٣) تذكر أكثر الكتب « يشبك من مهدي » بدلا من « ابن مهدي » ، وكأن ذلك اشارة الى كون أمه أم ولد « أمة » .

(٤) اطلع حاجي خليفة على قول السخاوي وقال في كشف الظنون : « فتوح الشام ... نظمها محمد بن محمود بن آجا التركي في اثني عشر ألف بيت » .

(٥) يعني تأريخ يشبك المذكور ، كما أومأنا اليه آنفا .

ثم اعتذر السلطان يعقوب بن حسن الطويل الى سلطان مصر ، وقامت والدته فى الصلح مقاما محمودا ، وخمدت الفتنة [١] .

مؤلف الكتاب ونبذ منه

كل ما استطاع واصفو الكتاب وخزانه أن يعلموه من خبره أنه كان تلميذا لابن حجر العسقلانى ، وأنه كان قاضيا للعسكر ، مستدلين بما ورد فى الرحلة من تصريحه بذلك ، ولكن المؤلف بقى مجهولا أمره ، وبقى الكتاب غفلا من اسمه . وقد حرصنا على أن نبحث عن حقيقته ، حتى اهتدينا الى معرفته ، بالمقابلات التأريخية والتصور التأريخى العام ، والاستدلال الضمنى ، وهو : « القاضى شمس الدين محمد بن محمود المعروف بابن آجا ، فقد ذكر فى رحلته أنه حمل رسالة الى الأمير سوار الخارج على السلطان قايتباى ببلاد سيس ، قال « و ٢٥ » : « وفى عشرين من تأريخه وصل قاصد من عند سوار المخذول ، فجهزونى اليه » ، ثم قال : « فما لبثت غير ساعة رملية حتى طلبنى ، فلما قربت منه قام ولاقانى خطوات وأجلسنى بجانبه ... والظاهر أن قاصده أخبره بذلك ؛ لأن المقر الأشرف أميردوادار ـ أيده الله بملائكته ـ قال للقاصد المذكور : قد جهزت اليكم قاضى العسكر ، وهو والدنا كلنا ، واعتمادنا على كلامه ، ورضاه رضانا ، ومهما اتفق معكم كان ذلك ، وما ثم [٢] خلاف . فتناولت داوادار الكتاب الذى صحبنى ... » . وقد ذكر هذه الحادثة ابن اياس فى حوادث سنة « ٨٧٦ هـ » قال : « فيه أرسل السلطان الى سوار تجريدة ، وهى التجريدة الثالثة ، وكان [٢] باش العسكرية المقر السيفى يشبك بن المهدى أمير آخور وجماعة من الأمراء المقدمين ... فخرج الأمير يشبك فى طلب عظيم ... وتوجهوا جميعا الى « زمنطو » التى هى محط رحال سوار ، فأقاموا هناك يحاصرو « كذا » قلعتها مدة وسوار بها . فلما أراد الله ـ تعالى ـ خذلان سوار ، غلت يده ، وزال سعده . فأرسل يسأل فى الصلح ، ويطلب الأمان من الأمير يشبك ، فأجابه الى ذلك . ثم ان سوار أرسل يطلب الأمير تمراز قريب المقام الشريف ، فأشار الأمير يشبك على الأمير تمراز بالتوجه الى سوار ، وأخذ صحبته القاضى شمس الدين آجا قاضى العسكر ، فطلعوا الى سوار الى قلعة « زمنطو » ،

---

(٢) المرجع المذكور (ص ٤٣ ـ ٧) ومن شاء فليرجع الى النسخة المطبوعة من « بدائع الزهور » والضوء اللامع (٢٧٢/١) .

(١) قصد « وما بقى خلاف » ، وهو من التعابير العامية ، ولا يزال العامة عندنا بالعراق بل كثير من الخاصة يستعملون هذه العبارة .

(٢) يعنى مقدم العسكر ، وهى كلمة « باش » التركية المعروفة .